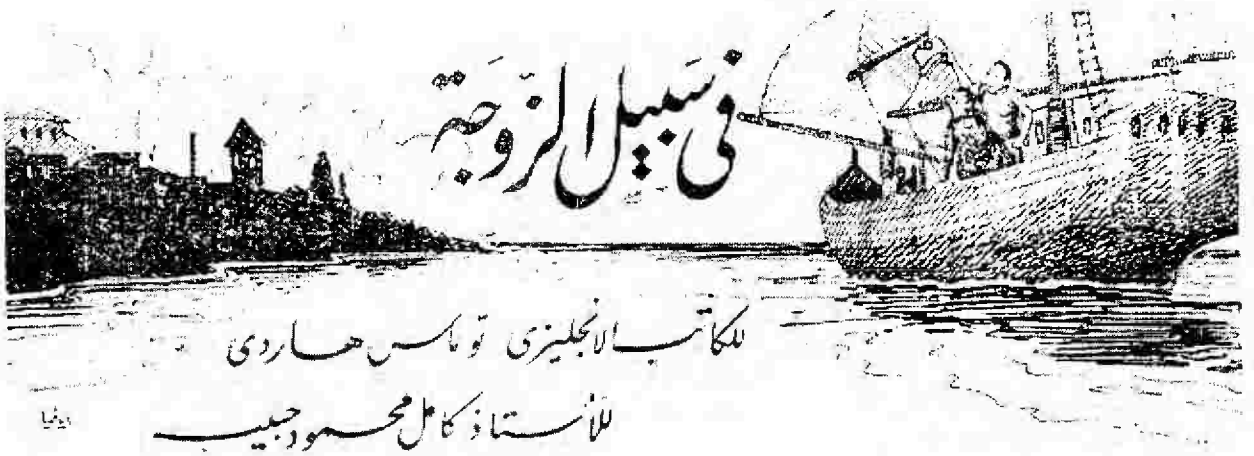

فى سبيل الزوجة

للكاتب الانجليزى توماس هاردى

للأستاذ كامل محمود حبيب

— ١ —

فى أمسيّة يوم من أيام الآحاد ، وقد ابتدأ الظلام ينشر سجوفه على مدينة هاڤنبول ، كان فناء كنيسة سان چيمس يتلألأ ، وتسطع فيه أضواء الشموع ؛ والقسّ فى محرابه يحذّر الناس ويعظهم ... ثم وقف — وقد انتهت الصلاة — فى خشوع وذلة ، وراح الجمع ينسلّون رويداً رويداً .

كان المكان هادئاً صامتاً لا يرتفع فيه إلاّ هدير الأمواج الصاخبة تصفع الشاطىء فى شدة حيناً وفى لين ، وإلاّ صوت أقدام رجل ينطلق إلى باب الكنيسة يريد أن يفتحه لينصرف المصلون ؛ وحين شارف الرجل على الباب ارتفع المزلاج من الخارج وداف رجل فى لباس البحّار ... ثم انطلق على مهل حتى وقف بازاء المحراب ، والقسّ يحدجه بنظرات فيها الغضب والحنق على فضوله ؛ غير أن البحار قال فى هدوء : « لا تؤاخذنى بما فعلت ياسيدى ، فلقد جئتُ لأحمد الله على أن أنقذنى من الغرق حين تحطم مركبى ؛ هذا واجب أريد أن أؤديه إن وجدتُ منك الرضا » ، وصمت الراهب حيناً ثم قال : « لا مانع ؛ وكان يجدر بك أن تجىء فى بدء الصلاة ، والآن سنصلى معاً صلاة النجاة من الغرق » ، وانطلق القس يتلو الصلاة والبحار يرددها بعده كلمة كلمة ، وقد ركع وضم يديه إلى صدره فى خضوع ، والجمع من حوله خشّع ينظرون .

وحين تمت الصلاة انصرف الناس وقد عرفوا فى الشاب البحارَ شادراك چوليف الذى رحل عن وطنه الأول هاڤنبول ... رحل عنه إلى نيوفوند لاند ، حين مات أبواه .

وانطلق البحار يحدث هذا وذاك ، ويقص عليهم قصة حياته منذ ركب البحر ...

وعلى قيد خطوات منه فتاتان : أما إحداهما فضئيلة ضامرة رقيقة ، وأما الثانية فطويلة فارعة ؛ جذبه إليهما بعض ما بدا عليهما من رقة وخفة ونشاط ، فقال لمحدّثه : « من الفتاتان ؟ » قال له صاحبه : « أما القصيرة فهى إميلى هانتج ، وأما الطويلة فهى جُوَانا فلبيارد » ، قال : « نعم لقد ذكرتهما ... » ثم أسرع ؛ وحين حاذاهما قال : « إميلى ، ألا تذكرين ... ؟ » قالت الفتاة : « هذا ما أظنه يا مستر چوليف ! » وحدّقت فيه الثانية ، فقال : « لا أستطيع أن أذكر الآنسة جوانا غير أنى أعرف عنها الكثير »

وساروا جميعاً والبحار يحدثهما حديث ماضيه ، وهما تنصتان فى شغف ولذة ، وبلغوا — بعد حين — دار إميلى ، فتركتهما هذه ليسيرا جنباً

إلى جنب حتى دار جوانا ... وحين رأى شادراك نفسه وحيداً ارتد الى دار إميلى ... إنها تعيش مع أبيها ، وهى تدير دكانا صغيراً للكتب ، تسد بما تربحه منه ثغرة لا يسدها راتب أبيها الضئيل ... ودلف إلى الدار ليجد الأب وابنته يشربان الشاى ، فتناول قدحاً آخر ؛ وأخذ يحدثهما حديث البحر ومفاجآته ، والفتاة تحس أن هذا الشاب يجذبها إليه رويداً رويداً ؛ ومضى أسبوع توثقت فيه بينهما عرى الصداقة

وتلألأ القمر — ذات ليلة — ليبعث فى نفس البحّار الشاب النشوة والطرب ؛ فانطلق يستمتع بالهدوء والبحر والقمر ، ويستروح نسمات الحياة الناعمة ... ورأى فتاة تسير على بعد ظنها إميلى فانطلق فى إثرها ، وحين صار بحذائها وجدها جوانا فحياها وسار الى جانبها ، وهى تدفعه عنها برفق خشية غضب إميلى ، غير أنه أصم أذنيه عن كلماتها وراح يحدثها . . .

ماذا قال لها وماذا قالت ؟ ماذا كان منها وماذا كان منه ؟ لم يبح شادراك بشىء من ذلك ، ولكنه أصبح يهفو نحوها ويهمل أميلى قليلا قليلا . وطارت إشاعة تحمل فى ثناياها عزم البحار الشاب على الزواج من جوانا دون إميلى . ودوت الاشاعة لتبعث فى نفس الأولى الأمل الحلو ، وفى قلب الثانية اليأس والخيبة ... وبدا لجوانا أن تنطلق الى صاحبتها تكذب الخبر وتقول لها إنها ستدفع الشاب عنها فى رفق ولين . . .

لم يكن شادراك هو كل أمل جوانا ، فهى لا تستشعر حبه فى قلبها ، وهى لا ترى فيه رجلها لأنه فقير ، ثم هى جذابة جميلة ناعمة ، تأسر القلوب وتسيطر على الأفئدة ؛ غير أنها أعجبت بلباقة البحار وظرفه ، وكانت ولوعاً بالزواج . . .

واختلجت هذه الأفكار فى رأسها فكتبت الى صاحبها تقطع ما اتصل بينهما ، وانطلقت الى صاحبتها تريد أن ترى أثر الخبر فى نفسها ، وفى يدها كتابها الى شادراك لتقرأه على صديقتها قبل أن ترسله .

دخلت جوانا فلم تجد إميلى فى الدكان فجلست تنتظر ... ونظرت فاذا شاب يحدق فى بعض الكتب من خلال الزجاج ... إنه هو ، هو شادراك جاء ليجلس الى إميلى ، وهو الآن يجيل بصره فيما حوله علّه يجدها وحدها ؛ وأنفت جوانا من أن تجلس الى صاحبها تحت سمع إميلى وبصرها فانفلتت تتوارى خلف سجف لترى وتسمع ، ولتستطيع أن تتسلل من الباب الخلفى متى أرادت ... وبدا لعينيها ما ارتسم على وجه شادراك من سمات الألم والحزن حين دخل فلم يجد إميلى ؛ وهمّ أن يخرج غير أن شبح إميلى كان قد بدا له فتريث . وحين رأته هى فزعت كأنها تريد أن تنكص على عقبيها ، فقال شادراك : « لا ... لا ترحلى ، ما الذى يفزعك يا إميلى ؟ » قالت : « لا شىء ياربان جوليف ، لا شىء سوى أنك فجأتنى فاضطربت » وكان صوتها يضطرب كأنه يحدّث عن بعض ما فى قلبها من بأس وألم . ورأى الشاب ذلك فقال وهو يبتسم : « لقد عرّجت عليك فى طريقى ... » قالت وهى تقفز ليكون النضد بينهما « لعلك تريد بعض الورق ! » قال : « لا ، لا ، يا إميلى ؛ لماذا تقفزين هناك ؟ لماذا تبتعدين عنى ؟ أفأصبحت تبغضيننى ؟ قالت وما زال الاضطراب فى ألفاظها : « لا ، أنا لا أكرهك ، وكيف أفعل ؟ » قال : « تعالى إذن هنا نتحدث كصديقين » . . . وجلست إليه وعلى فمها ابتسامة رقيقة ، وانطلق هو يحدثها : « ها أنت ذى ياعزيزتى ... » فقاطعته : « لا تقل هذا ، أيها الربان ؛ إن هذه كلمات يجب

أن تكون لشخص واحد ليس غير » . قال : « لقد أدركت ما تعنين ؛ وإنى أقسم أنه ما جال فى خاطرى يوماً أنك تفكرين فىّ . أنا أشعر بميل إلى جوانا ، وأعلم أنها لا تحمل لى فى قلبها شيئاً من الحب ، وما كان بيننا سوى الصداقة ؛ وأنت تعلمين أن البحار حين يهبط أرضاً يكون أعمى كالخفاش ، فهو يريد امرأة تسلس له وتنقاد ثم لا يعنيه ماوراء ذلك . ولقد أحببتك وسكنت إليك — بادىء الأمر — ولكنك انزويت عنى فأحسست كأنك تدفعيننى عن نفسك فى رفق ، فانطلقت إلى جوانا ... » قالت وهى ترتجف : « كفى ، كفى ؛ فأنت ستتزوج من جوانا فى الشهر القادم ، وإنه من العار ... » قال وقد أمسك بذراعها يضمها إليه : « إميلى ... عزيزتى إميلى ... إنه هو أنت ... أنت وحدك التى أحب ، وأنت التى سأتزوجها . إن أمل جوانا أن تتزوج من رجل غيرى غنى . إنها لا تصلح لى ... » ، وكانت جوانا من خلف الستر تختلج وتضطرب وقد فجأها حديث شادراك فأزعجها وآلمها ، فانطلقت وفى قلبها الحقد والكراهية لصاحبتها إميلى ... انطلقت إلى دارها تمزق الخطاب الذى كتبته إليه وفى رأسها خاطرة تضطرم : لقد عزمت على ألا تدع البحار الشاب يفلت فيكون هو سعادة إميلى وشقاءها فى وقت معاً ...

وطربت إميلى لحديث الشاب فقامت تودعه وفى عينيها عبرات الشكر والسرور

وسيطرت الفكرة على شادراك فكتب إلى جوانا يكشف لها عن بعض ما ظنه قد خفى عليها ، وطلب اليها أن تكتب له ، ثم انتظر ... انتظر طويلاً فلم يظفر منها بكلمة ، وأمضه الانتظار ، فانطلق اليها ... وقالت له أمها : « إنها مريضة لا تستطيع أن تجلس اليك . ولقد أحست هى فى خطابك صفعة قوية قاسية هدمت كيانها » وأفاضت الأم فيما قالت ، وكان البحار الشاب رقيق القلب ، سليم الطوية ، فصدق حديث الأم المفترى ، وألقى بين يديها قياده وهو يقول : « ويلى ! لقد قسوت حقاً ؛ والآن فلها هى الخيار »

وفى الصباح التالى جاءه خطاب من جوانا تطلب اليه أن يوافيها الى الملتقى ... وقالت له وهما يسيران ذراعاً فى ذراع : « الآن رجعت المياه إلى مجاريها ، وكان خطابك غلطة من غلطات الشباب أليس كذلك ؟ » قال وهو يبسم : « بلى ...! »

وتصرمت أيام ... طلعا بعدها على العالم عروسين ....

— ٢ —

وكرهت الزوجة أن ترى زوجها يركب البحر فيخلفها نصف زوجة ، ويتركها وحيدة وقد ماتت أمها ، ثم هى لا تأمن غدر الأمواج ، فراحت تحبب اليه البقاء الى جانبها ليقوما معاً بعمل فيه الأمن والربح

واطمأن الزوج لحديث زوجته ، فأنشأ دكاناً للبدالة ، وبذل قصارى جهده ليفوز من دكانه بمغنم ؛ غير أن جهله بفنون التجارة كان عقبة كأداء . ودار الفلك دورات ، وهو هو ، حيث كان منذ سنوات ، لم يفد شيئاً سوى ولدين أشرقا فى دجى حياته ، وأحبتهما الأم حباً أنساها ما كانت تحبو به زوجها من الحب ، وشب الطفلان على شاطىء البحر فيهما الفراهة والقوة والنشاط ، لكنها لا تستطيع أن تنشئهما كما صور لها خيالها ، وبدت لها الحقيقة مرة لذاعة

* * *

وكانت إميلى قد تزوجت من تاجر غنى ، راح يتودد إليها حتى رضيته زوجا ، وتفتحت زهرة هذا الزواج عن طفلين مسحا عن قلبها ما كان من حب لشادراك ومن كراهية لجوانا ، واستقرت إميلى فى دار زوجها الفسيحة الجميلة ، وهذه الدار تجاه دكان شادراك !

اشد ما آلم جوانا أن ترى المرأة التى غلبتها على أمرها حينا من الدهر فى قصرها المشيد ، ترفل فى حريرها وسندسها بين أطفال كالأقمار ، وأن تراها تطل من نافذتها بين الحين والحين كأنها تستمتع بما ترى فى دكانها من معانى الضعة والفقر ! ولشدّ ما حزّ فى قلبها أن تستشعر الخيبة بعد أن أحرزت النصر ؛ وأن ترى حياتها تتفتح عن فاقة وعوز ! أفكان هذا هو كل ما أفادت جوانا حين ظفرت بفتاها شادراك ؟

* * *

وجلست جوانا إلى زوجها تحدثه وقد خلا المكان إلا منهما ، وبصرها معلق بعربة أحد الأغنياء الكثيرين الذين يزورون إميلى بين الفينة والفينة ؛ تحدثه تقول : « ما كان لرجل أن يبرز فى عمل لا يجيده ولا يتقنه ، وأنت لا تحسن فناً من فنون التجارة » قال الزوج : « إن الثراء لا يعنينى كثيراً ، وحسبى أن أعيش إلى جانبك سعيدا .. » قالت : « أفلا ترى ما بلغت إميلى من الثراء والدعة ؟ إن ابنيها يتعلمان فى الكلية ، أما ابناك فلا يستطيعان ... » واستيقظ الهوى فى قلب البحار حين ذكرت إميلى فقال : « إنه أنت .... أنت التى رفعت إميلى إلى ما ترين حين جذبتنى إليك ، فارتدت هى فى يأسها تجيب التاجر إلى ما طلب . » وثار الحقد والغضب فى صدر الزوجة فقالت فى غيظ وحدة : « دع الماضى ، وانظر كيف تجد السعادة لابنيك ! » قال : « لقد كنت أستطيع لو أننى انطلقت إلى عملى .. عملى الذى أجيده ... إلى البحر ... »

وتحركت أطماع الزوجة فى صدرها فقالت : « أفترى النجاح هناك ؟ » قال : « نعم » قالت : « أفتريد أن تذهب ؟ » قال : « ما أريده للذة فى نفسى فأنا أجد اللذة هنا إلى جانبك وإلى جانب أولادى غير أنك تريدين الثراء ، وهذا طريقه . » قالت : « ومتى تعود ؟ » قال : « من يدرى .؟ »

وفى الصباح لبس شادراك ملابس البحار وانطلق إلى البحر ... إلى نيو فوندلاند ...

* * *

وترعرع الطفلان ، وانطلقا إلى الميناء يعملان بأجر زهيد ، وأمهما جالسة إلى نفسها تحدثها : « لا ضير ، فهما يكسبان ما نسد به عوزنا ، سيكونان فى السابعة عشرة والثامنة عشرة حين يرجع أبوهما يحمل إليهما المال ، وبه يبلغان ما بلغ أبناء إميلى من الرفاهية والعلم ... »

وانقضت الأيام ، وحانت عودة شادراك ولكنه لم يأت ... غير أن ذلك لم يزعج الزوجة ولم يقلقها فهى تعلم أن المركب شراعى وأنه لا ضير إن لم يصل فى ميعاده ... وانطوت أيام ...

وعاد الرجل وعلى وجهه سمات الفرح باللقيا بعد الفراق الطويل ، وعلامات الفوز بما يرضى به زوجته ؛ وراح يضم زوجته فى شغف وحب وهو يقول : « لقد أفدتُ كثيرا ياجوانا » ثم أفرغ فى حجرها كيسا كبيراً قد ملىء ذهباً . وبدت الدهشة على وجه الزوجة — بادىء ذى بدء — ثم انمحت قليلاً قليلاً ، ليحل محلها الجشع الذى فى صدرها فقالت : « أهذا كل ما أفدت ؟ » واستشعر الرجل الخيبة فقال : « ماذا ، ما ذا يا عزيزتى ؟ إنه

لثراء ... ! » قالت وكأنها تؤنبه : « هذا ثراء لمن يعيش فى البحر ؛ أما هنا ... »

وأمسكا عن الحديث حين دخل الولدان ...

وفى يوم الأحد التالى انطلق شادراك الى الكنيسة ليؤدى صلاة النجاة

وبدا للرجل أن زوجته لا تقنع ، فراح يحدثها ليستشف من حديثها بعض ما يكنه قلبها ، فقالت وهى تشير الى دار إميلى « إنهم يملكون الآلاف وما عندنا سوى بضع مئات ؛ لقد اشتروا عربة وحصانين . ما زلنا فقراء يا شادراك ... »

وقضى الزوج عاماً لا يرى زوجته إلا حزينة كئيبة ، فأمضه ذلك وآلمه وعزم على أن يغامر فى البحر مرة ثانية مع ولديه . وانطلق الى زوجته يكشف عن عزمه فاضطربت وفزعت ، وقالت : « لا ، لا ، ياشادراك . لا أستطيع ذلك ، ولا أريد أن أقذف بهما فى يد الأمواج ... » قال الزوج « وأنا لا أستطيع السفر بدونهما »

وباتت المرأة ليلتها تقلب الفكرة فى رأسها ، وعلى خطوات منها إميلى تسعّر الحقد والغيظ فى قلبها فلا تستطيع صبراً على ما هى فيه من فاقة وفقر ؛ غير أنها لا تقوى على أن تعيش وحيدة ، ولكن .. ولكن أحلامها فى الغنى والسعادة ...

وصاحت زوجها تقول له : « أتستفيد كثيرا لو أنهما ذهبا برفقتك ؟ » قال : « أضمافاً مضاعفة ، فهما خير لى من رجال كثير ، وأنا ألمح فيهما الذكاء والفطنة والجلد والجد » قالت : « وهل فى ركوب البحر من خطر ؟ قال : « نعم »

ومرت أيام وأيام ، والأم لا تستطيع أن تقر على رأى ... ثم وافقت ...

— ٣ —

وخيّل للرجل أن موقف الوداع يعصف بقلب الأم ويبذر فى الصبيين غراس التخاذل والضعف ، فانسل برفقة ولديه فى الصباح الباكر ونسمات الربيع تمر هيّنة ندية . وأحست الأم ، بعد حين . فاندفعت على آثارهم لترى ما سطره الرجل على الجدار ، ينبئها بسفرهم خلسة لئلا تحزنها ساعة الفراق وتؤلمها ، لترى كل ولد وقد ترك أثراً تحت أثر أبيه يقول : « وداعاً يا أماه ! » وانطلقت الأم تدرك السفر ، غير أن سفينتهم « جوانا » كانت هناك عند الأفق تمخر العباب ... وتفجرت العبرات من محجريها — وقد تصدع قلبها — تمسح السرور والبهجة عن أيامها . وارتدت ... ارتدت لترى مثلها الأعلى فى المرأة التى دفعت زوجها وابنيها الى اليم ... إميلى ...

وانقضت أشهر الصيف الأولى ، وجوانا لا تبرح دكانها وما فيه إلا الرفوف ، وإلا النضد ، وإلا بقية من البضاعة ؛ وجاءت أيام الشتاء تريد أن تمحو ما سطرت أيدى زوجها وولديها ؛ وشق على الزوجة أن ترى هذا الأثر الغالى يمحى ، وهى ترى من خلاله بسمات سيدها وولديها ، فغطته بألواح من الخشب ...

ورأت إميلى ما يضطرب فى خيال صديقتها جوانا فانطلقت ترفه عنها وتشترى منها بعض أشياء هى فى غنى عنها وعن بعض ما فيها من قذارة ورداءة ؛ وجوانا لا تطمئن إليها ولا تهدأ لأنها ترى فى ذلك معنى الشماتة والتشفى ؛ وتأرث الحقد فى صدرها حين رأت ابنى إميلى وقد عادا ليقضيا أيام عيد الميلاد بين أبيهما وأمهما ، يبدو عليهما أثر النعمة والعلم معاً ...

ومضى عام ... وابتدأ القلق يستولى عليها ... وجلست إميلى إليها تحدثها فقالت لها جوانا : « أنت تسيرين فى طريق النجاح دائماً ، أما أنا

فأهبط فى منحدر الاخفاق دائماً » قالت إميلى « لماذا ، لماذا ؟ سيرجعون جميعاً وفى أيديهم الثروة والمال ... » قالت « أفيرجعون ؟ أفيرجعون حقاً ؟ إن الشك قد هيمن علىّ . إن مركباً واحداً قد أقلهم جميعاً ، والأشهر تمضى وأنا لا أعرف ما يصنعون ! لا شىء ينزع عنى الهم سوى عودتهم » قالت إميلى : « أنت مخطئة يا جوانا ، لماذا دفعت بهم الى البحر ؟ » فالتفتت جوانا مهتاجة تقول : « نعم ، انه أنا التى فعلت ، وانه أنت التى أغريتنى بذاك ؛ فما كنت لأستطيع أن أراك غنية ترفلين فى حلاك وحللك ونحن نتخبط فى شدائد الفقر والحاجة . هذا ما فى قلبى ، ولا يعنينى بعدها أن تكرهينى » قالت إميلى فى هدوء : « لا يا جوانا ، أنا لن أبغضك أبداً »

وكانت إميلى صادقة فيما قالت ...

ودار الفلك دورته يذيق المرأة وبال أمرها ، لتكفر عن سيئات اقترفتها حين طاوعت أطماعها ، واليأس يتدفق فى قلبها ينزع عنها الصبر والايمان

وذكرت أمنية زوجها حين قال : « ... وحين نعود غانمين سالمين نذهب الى الكنيسة لنؤدى صلاة الحمد كما فعلت أول مرة ... » فكانت تذهب هى صباح مساء لتركع هناك حيث ركع زوجها منذ سنوات وسنوات وهى تضرع الى الله ...

وطال بها الانتظار ، وهى لا تجد من يقص عليها قصة زوجها وابنيها ، فتوزعتها الهموم والأحزان ، وارتاحت لوحدتها وخلوتها ؛ وإميلى من ورائها تدفع عنها الخواطر السود ؛ غير أن جوانا قالت لها فى غضب وحسرة : « أنا أكرهك ! أنا لا أستطيع أن أراك ! » قالت إميلى : « لماذا ؟ فأنا أريد لك السلوة والاطمئنان ! » قالت : « أنت سيدة غنية تتنعمين بالمال والزوج والبنين ، فماذا تبتغين من امرأة مثلى تهدمها الأيام ؟ » قالت إميلى فى رقة : « أطلب إليك أن تعيشى معى ... معى فى منزلى فأخرجك عن خلوتك ووحدتك وكآبتك » قالت : « لا ، لا . سأظل هنا ! إنك تريدين أن تنتقمى ... تنتقمين منى لأننى حلت بينك وبين شادراك ؛ إنك تريدين حبسى فى دارك لتبذرى فى نفوسهم اليأس حين يعودون فلا يجدوننى »

وأمسكت إميلى عن الاجابة لأنها تعلم — كما يعلم من فى هافنبول — أن شادراك وولديه قد ابتلعتهم الأمواج منذ حين ...

ومرت الأيام ... وعجزت جوانا عن أن تدفع أجر الدكان والمنزل حين نضب معينها ؛ فهى قد عافت العمل منذ زمان ، وزوجها قد أخذ كل ما أفاد ليثمّره ويكثره ، وتضاءل الأمل فى عينيها رويداً رويداً ، فأجابت إميلى إلى ما طلبت ... وامتدت يد الأيام إلى المرأة تحمل إليها المشيب الباكر ، وترسم على وجهها غضون الأسى والألم ، وتحنى ظهرها ، غير أن الأمل ...

واستولت على المرأة نزعة جنون تفزعها عن مرقدها بين الفينة والفينة لتنظر خلال النافذة علّها تجد أحبّاءها

* * *

وهبت ريح الشتاء الباردة تصفر صفيراً مزعجاً ، والظلام الحالك ينشر ذوائبه على المدينة ، والمرأة جالسة فى حجرتها ترهف السمع ... ترهف السمع بعد ست سنوات خلون منذ أن أقلع المركب « جُوانا » ... وخيل إليها أنها تسمع صوت شادراك وولديه ، فاندفعت تدق باب الدكان دقاً عنيفاً ... وأطلّ شاب من النافذة ليقول لها : « ياسيدتى ، إن أحداً لم يأت ! »

كامل محمود حبيب